مصادر الفتح الاسلامي لارمينية

عبد الباقي علي محمد

تتحدد مسؤولية الباحث في التاريخ بمدى بعده عن الذاتية، وقربه من الموضوعية وبالتالي يجب عليه أن يكون أمينا في النقل، وأمينا في الاستنتاج، وأمينا أيضا في التحليل، وألا يقدم بعض المصادر على بعضها إلا بعد دراسة ممحصة، وتحقيق وتدقيق، وأن يبذل جهدا في هذا السبيل على حسب المقام، فالمعاناة هي رائدة الدراسة والبحث. كما كانت رائدة الفكر والابتكار في الفن.

فإذا تناول الباحث الموضوع الخاص بالفتح أو الغزو من وجهة نظر الفاتحين كانت رؤيته ناقصة. وإذا تناوله من خلال رؤية المفتوحين كانت رؤيته معكوسة وغريبة عن التناول التاريخي الجاد. ويتمثل هذا الاتجاه بأعمال الكتاب من المستشرقين أو الشرقيين المسيحيين الذين دفعهم الضعف البشري، وعدم الأمانة العلمية الى الدس الرخيص. ومن هؤلاء جرجي زيدان، وفيليب حتي، وفايز اسكندر. الذي تناول بعض المصادر الإسلامية بالتجريح. وبخاصة الطبري في مجلة سيرتا[1]. التي كانت تصدر عن معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة.

وكان عنوان هذا البحث الذي هو جزء من أطروحته للدكتوراة «الفتوحات العربية لأرمينية». ويلاحظ لدى بعض الباحثين التاريخيين معاداة صريحة لمادة «إسلام» فلا يكادون يجدونها إلا حوّلوها لمادة «عروبة». ويقابل هذا البعض بعض آخر يميل إلى وصفها بالإسلام ليثبت ان العرب كانوا عاجزين، وبخاصة فيما يتصل بالعلوم والصناعات والمجالات الحضارية.

وقد تكررت كلمة «دراسة» في عنوان الموضوع السالف الذكر مرتين، مع كلمة «عرض وتحليل للمصادر» إذن فالنقد موجه لهذه المصادر الإسلامية، فهو يقول: «زودتنا المصادر الأرمينية» وكذلك العربية والبيزنطية والسريانية بمادة تاريخية على درجة كبيرة من الأهمية، تتعلق بالفتوحات العربية لأرمينية...» إلى أن يقول: «ولمن التناقض والتضارب شاب هذه المعلومات»[2]. وبالدراسة المتأنية تبين لي ألا تناقض أو تضارب الا في رأس هذا الباحث، الذي حكمته من خلال بحثه أفكار مسبقة، وعقائد ذات صبغة ذاتية ضيقة. ولا عجب فالباحث مسيحي أرثوذكسي، والبلاد المفتوحة تنتشر فيها هذه العقيدة المذهبية، مما جعل د. فايز اسكندر يبدو لي من خلال منظور استشراقي، والغريب هو أمر هؤلاء المستشرقين الذين يعملون من الشرق، وهؤلاء يختلفون عن المستغربين من المسلمين من أمثال محمد حسنين هيكل، وطه حسين وغيرهما. وإذا كانت حركة الاستغراب زاملت حركة الاستشراق، ورافقتها خلال رحلتها الطويلة، فان الحركة الثالثة قامت في منطقة الشرق الأوسط لتشد من الازر كتل من الحركتين على السواء والجميع من مخلفات عصر الأحقاد الصليبية، فقد نفث هؤلاء وأولئك السموم في تضاعيف الفكر الإسلامي ما بين تليد وطريف، وكان نتاج ذلك هذا الجيل الهجين.

ولكن ماذا اتفقت حوله هذه المصادر؟ وماذا اختلفت بشأنه؟ أما ما اتفقت حوله، ففيه يقول د. فايز: «اتفقت المصادر العربية والأرمينية على أنه بعد فتح بلاد الجزيرة، ومنطقة أدربيجان الفارسية انطلقت الجيوش العربية الظافرة تفتح أرمينية، ويبدو أن من أسباب ذلك موقعها الاستراتيجي ومتاخمتها لبلاد الروم من ناحية ثانية[3]». والاستيلاء عليها كان بمثابة تأمين لبلاد الجزيرة والشام، ولعلها تمهيد لفتح اسيا الصغرى. والاستيلاء على الامبراطورية البيزنطية. ذلك أن المسلمين أدركوا بثاقب بصرهم وبصيرتهم أن أرمينية أنسب قاعدة متقدمة لفتح بلاد الروم.

يقول البلاذري عن جغرافية أرمينية وتقسيماتها السياسية: «كانت شمشاط وقاليقلا. وخلاط. وأرجيش. وباجنيس تدعى أرمينية الرابعة. وكانت كورة البسفرجان. وديبل. وسراج طير. ويفروند تدعى أرمينية الثالثة. وكانت جزران تدعى أرمينية الثانية. وكانت السيسجان واران تدعى أرمينية الأولى»[4].

إلى أن يقول: «وكانت جرزان. واران في أيدي الخزر، وسائر أرمينية في

أيدي الروم، يتولاها صاحب أرميناقس»[5].

على أن البلاذري قد خصص فصلا من كتابه لفتوح أرمينية، تحدث فيه بالاضافة الى جغرافيتها ووضعيتها السياسية عت تاريخها الذي سبق الفتح الاسلامي (من 197 ـ 200) ثم تناول الحملات التي وجهها عثمان بن عفان لفتحها، ابتداء من حملة ابن مسلمة (19 هـ / 640 م) حتى حملة سلمان بن ربيعة (25 هـ 645 م).

وقد زودنا البلاذري بنصوص الوثائق التاريخية مثل الأمان الذي قدمه حبيب ابن مسلمة الى أهل ديبل[5] والصلح الذي أبرمه مع بطريق جرزان وأهلها[6]، وكذلك الصلح مع أهل تفليس، وكتاب الجراح ابن عبد الله الحكمي لاهل تفليس[7].

وقد تناول البلاذري ولاة الأمويين والعباسيين[8]، بحيث نجد د. فايز اسكندر يقول في التعليق على أهمية هذا المصدر: «ويحتل كتاب «فتوح البلدان مركز الصدارة بين المصادر الاسلامية المبكرة، التي أرخت للفتوحات العربية لأرمينية»[9].

وعن بنود الصلح يقول البلاذري، ان «عياضا فتح آمد بغير قتال على مثل صلح الرها، وفتح ميافارقين على مثل ذلك، وفتح حصن كفرتوثا، وفتح نصيبين بعد قتال على مثل صلح الرها، وفتح طور عبدين، وحصن ماردين ودارا على مثل ذلك، وفتح قردى، وبازيدي على مثل صلح نصيبين» كل ذلك فيما بين سنة 19 و20 هـ، «ثم سار الى ارزن ففتحها على مثل صلح نصيبين، ودخل الدرب، فبلغ بدليس، وجازها الى خلاط فصالح بطريقها وانتهى الى عين الحامضة من أرمينية»[10].

وعلّق د. فايز على ذلك بقوله: «وهي أسهل بكثير من الشروط التي كانت مفروضة من طرف الروم، وربما كان ذلك أحد الأسباب التي دفعت المدن لفتح أبوابها للمسلمين، اذ كانوا يفتحونها دون مقاومة تذكر»[11]. والشروط التي يعنيها د. فايز هي الجزية أو الاسلام، وكانت دينار عن أهل كل بيت كما سنرى ذلك من رواية الطبري، الذي تناول الموضوع بايجاز فقال: «وجه عياض عثمان بن العاص الى ارمينيا الرابعة فكان عندها شيء من قتال، أصيب فيه صفوان بن المعطل السلمي شهيدا، ثم صالح أهلها عثمان بن العاص على الجزية على كل أهل بيت دينار»[12].

وإذا رحنا نقارن بين الروايتين: رواية البلاذري، ورواية الطبري، نلاحظ ما يأتي:

أولا ـ في الأولى المصالح عياض. وفي الثانية عثمان بن العاص. والأول متبوع. والثاني تابع. وما يقوم به التابع منسوب للمتبوع وهو أدق.

ثانيا ـ أرمينيا الرابعة عند الطبري هي أرمينيا الأولى عند البلاذري وان كان اليعقوبي يتفق مع الطبري في تسميتها بالرابعة[13].

ثالثا ـ الروايتان اتفقتا على أن الصلح كان هو النتيجة النهائية الا أن الطبري أضاف رغم الايجاز «ان قتالا حدث. أصيب فيه صفوان ابن المعطل السلمي شهيدا» وهو تفصيل يحمد عليه الطبري وزيادة مفيدة.

رابعا ـ ان للطبري اضافة أخرى مفيدة هي قوله «ثم صالح أهلها عثمان بن العاص على الجزية على كل أهل دينار» فبين أنهم أهل كتاب (نصارى ويهود) وان الجزية التي فرضت كانت دينارا واحدا. فما معنى أن يقول د. فايز اسكندر في التعليق على الروايتين «من هذا يتضح أن المصادر الاسلامية متضاربة فيما بينها»[14]. ويرتب على ذلك نتائج مسبقة رغم أنه لم يكلف نفسه عناء التوفيق بين الروايتين ويردد ما سبق أن ردده المستشرقون قبله فيقول: «ويرجع سبب ذلك ان مصادرنا العربية اعتمدت على الرواية الشفوية. فلم يعرف العرب التدوين التاريخي حتى العصر العباسي»[15]. وهو غير صحيح لأن المغازي كانت تكتب في عهد الرسول ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين وبني أمية. فقد روى ابن عبد البر بسنده عن أبي هريرة قال: لما فتحت مكة قام رسول الله ﷺ فخطب. فقام رجل من اليمن. يقال له أبو شاة. فقال: يا رسول الله اكتبوا لي. فقال رسول الله: «اكتبوا لأبي شاة»[16] أي أكتبوا له الخطبة.

وروي أيضا عن همام بن منبه قال: انه سمع أبا هريرة يقول «لم يكن أحد من أصحاب محمد ﷺ أكثر مني حديثا الا عبد الله بن عمرو بن العاص. فانه كتب. ولم أكتب»[17].

وإذا كنا بصدد أمية العرب قبل الاسلام فلم تكن أمية كتابة وانما كانت أمة دينية «بدليل التوعد لاهل الكتاب بما يكتبونه بأيديهم بعد وصفهم بالأمية[18] في قوله تعالى: «**ومنهم أميون لا يكتبون الكتاب الا أماني. وان هم الا يظنون**»[19].

ولم يكن العرب كل العرب أميين قبل الاسلام فكيف بهم بعد الاسلام. وهذا أبو ذؤيب الهذلي في الجاهلية يصف كتابا في اليمن يكتب دينه على رجل آخر يثني عليه الناس بالوفاء والسداد:

برقم ووشى كما زخرفت	بميشمها المزدهاة الهديّ
أوان وأنبأه الأولو	ن أن المدان ملّى وفيّ
فنمنم في صحف كالريا	ط فيهن ارث كتاب محيّ[20]

وقد حكى لنا عبد الله بن عمرو بن العاص قصة الكتابة التاريخية المعاصرة للرسول ﷺ. فقال «كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه. فنهتني قريش. وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه. ورسول الله يتكلم في الرضا والغضب؟ فأمسكته عن الكتابة. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ. فأومأ الي فيه وقال: اكتب. فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه الا حق»[21]. وفي عهد بني أمية كتبوا الحديث. وابتدأوا في تدوين العلوم فضلا عن التاريخ. فقد روى ابن عبد البر عن سعيد بن جبير قال: كنت أكتب عن ابن عباس ما أسمعه من أحاديث النبي على واسطة الرجل حين رحيلي معه فإذا نزلت نسخته»[22].

على أن د. فايز اسكندر كشف النقاب عن وجهه حينما راح يقارن بين المصادر الاسلامية والمصادر الأرمينية حيث يقول: «فالبلاذري الذي يعتبر أهم من كتب عن فتوحات العرب في أرمينية عاش في القرن التاسع الميلادي (ت 279 هـ / 892 م) اعتمد في كتابته على الرواية الشفوية في حين أن المؤرخ الأرمني سبيوس Sebeos كان شاهد عيان في أرمينية»[23] وهذه الرواية الشفوية أن وجدت. فانها كانت تعتمد على ذاكرة قوية عند العرب، حافظت على سلامة القرآن من التبديل والتحريف. الذي تعرضت له التوراة (العهد القديم) والانجيل (العهد الجديد). وقد بينا ان الأمية لم تكن ظاغية الى هذا الحد، وانه كان هناك كتاب للوحي. وكتاب للحديث، وكتاب للغزوات صاحبوا الفاتحين وأرمينيا التي ابتدأ فتحها في سنة 19 هـ في عهد عثمان بن عفان، الذي جمع في عهده القرآن الجمع الثاني. وبقي على حاله من الصيانة والحفظ حتى الآن، ولكن التدوين بطريقة علمية هو الذي تأخر حتى نهاية عصر بني أمية وأوائل عصر بني العباس والمسألة اذن مسألة نزاهة وذاكرة واعية قبل التدوين.

وهناك سؤال يطرح نفسه هل هناك من المؤرخين الأرمن من قال بما يعارض الرواية الاسلامية؟ حتى نكذب العرب ونصدق الأرمن[24]، لا شيء من هذا الذي يوهمه كلام الباحث، وهذا عرض لجميع الروايات التي نقلها عن المؤرخين الأرمن.

يقول، كان مؤرخو الأرمن يطلقون على المسلمين «الاسماعيلية» وهو اطلاق كتابي من طرف اليهود والنصارى، وتارة يطلقون عليهم الهاجرين Agarren نسبة الى هاجر، وثالثة Sarrazinns وهي مأخوذة عن الصحراويين، ورابعة يقولون Madianites نسبة الى المدينة المنورة[25].

ويقول جان ماميكونيان Jean Mamikonéans عن تاريخ الطارون Tarawn «في نفس العام أعلن هرقل (610 ـ 641 م) الحرب على كسرى الثاني (590 ـ 628 م) وقتله .... وبعد مضي ثمانية أعوام زحف عبد الرحيم على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألف من الفرسان، وطالب الأرمن بدفع الجزية واجتاح هارك Hark: وباسيان Basean وايبريا Ibérie وشافكك Cavasck وفانند Vanand وبعد جمعه للجزية عاد الى قاعدته»[26].

وبمناقشة هذا النص يتبين لنا ما يأتي:

أولا ـ لا نعرف من قادة الفتح الاسلامي كله قائدا بهذا الاسم، ولعلها أخذت من «بسم الله الرحمن الرحيم» التي تكتب في أول معاهدات الصلح.

ثانيا ـ قول المؤرخ الأرمني، بعد مضي ثمانية أعوام، تدل على البداوة وعدم القدرة على التدوين، والا كان قد ذكر اليوم والشهر والعام، وقد كان التاريخ الميلادي موجودا ومتعارفا عليه.

ثالثا ـ وعبارة «وطالب الأرمن بالجزية» فذلك ما يفعله الروم، أما المسلمون فكانوا يعرضون الاسلام أو الجزية أو الحرب.

رابعا ـ ان الوثائق المتبادلة بين الطرفين من نصوص عهود الأمان التي أعطاها القادة الفاتحون مثل نص كتاب حبيب بن مسلمة لنصارى أهل ديبل، ومجوسها ويهودها[27] وكتاب حبيب بن مسلمة لأهل تفليس[28] وكذلك كتاب أمان سراقة بن عمر الى الأرمن[29] وكتاب أمان بكير بن عبد الله لأهل موقان[30].

ثم أورد رواية أخرى لمؤرخ أرمني أورد نفس الخبر السابق، اسمه القديس

نرسيس، الا أنه أخذ عليه قوله «ما ان هرقل قتل كسرى الثاني في العام الثمانين من التقويم الأرمني» من زاويتين، الأولى ـ ان كسرى الثاني قد اغتيل على يد قباذ الملقب بسيروين في 25 فبراير سنة 628 م (أي في العام السادس والسبعين من التقويم الأرمني)[31].

الثاني ـ ان الأرمن قد أدرجوا الفتح الاسلامي في العام الثامن والثمانين من التقويم الأرمني.

ثم علق على هذا التناقض الواضح بقوله بوقاحة غريبة «واستنادا الى الروايتين السابقتين، ودون اعارة اهتمام للرواية الاسلامية!!»[32]. افترض فريق من المؤرخين الأرمن ان الحملة العربية الأولى على أرمينية حدثت في عام 636 (15 هـ) أما الفريق الثاني فقد افترض عام 639 (18 هـ) تاريخا لها، ثم علق على ذلك بقوله «فإذا رجعنا الى الفريق الأول نجد أن افتراضه مبني على أن كسرى الثاني قتل سنة 628 م وان حملة عبد الرحيم وقعت بعد ذلك بثماني سنوات (628 (628 + 8 = 636 م) ... أما الفريق الثاني الذي ينص على أن الحملة العربية كانت في العام الثامن والثمانين من التقويم الأرمني. والتقويم الأرمني يبدأ سنة 551 م (551 + 88 = 639 م)[33]، وهي تقابل سنة 18 هـ. لكن بالمقارنة بين المصادر الاسلامية والأرمنية يتضح أن الخطأ كان من حظ المصادر الأرمنية، ذلك «أن الرأي الصحيح للتحديد التاريخي للحملة العربية الأولى على أرمينية هو سنة 19 هـ، فالطبري وابن الأثير الذي نقل عنه يسردان أخبار هذه الحملة تحت احداث عام 19 ه وعام 19 هـ ينتهي في 20 ديسمبر من سنة 640 م[34].

على أن رواية البلاذري أكثر تحديدا فهي تدرج الحملة الأولى في احداث سنة 19 هـ وأيام من المحرم سنة 20 هـ[35] «أي في منتصف يناير من عام 641 م، فشهر محرم بدأ في 21 ديسمبر سنة 640 م»[36].

ويرد الدكتور فايز على نفسه بعد أن اضطرب اضطرابا شديدا في بحثه «ويؤكد ما ذهبنا اليه رفض الفريقين السابقين (من مؤرخي الأرمن) ان العرب لم يكن باستطاعتهم اجتياح أرمينية قبل فتحهم بلاد الجزيرة ومدنها الرئيسية»[37].

ولكنه يمسح عرقه، ويخفي تخاذله في محاولة جديدة وأخيرة «وبذلك نستطيع أن نؤكد أن العرب تسللوا (كذا) للمرة الأولى الى أرمينية سنة 19 هـ / 640 م عن طريق الجنوب»[38].

الهوامش :

(1) السنة الخامسة . العدد 8ـ9 ربيع الأول سنة 1404 هـ / ديسمبر 1983 م.
(2) المرجع السابق، ص 37.
(3) المرجع السابق ص 37.
(4) فتوح البلدان ط بيروت سنة 1958 ص 197. وانظر معجم البلدان لياقوت . القاهرة 1906. جـ 1. ص 203.
(5) نفس المصدر ص 203.
(6) نفسه ص 204.
(7) نفسه. ص 204ـ205.
(8) نفسه ص ص 213ـ216.
(9) مجلة سيرتا، العدد الذي سبقت الاشارة إليه ص 41.
(10) المرجع السابق، ص ص 206ـ213.
(11) مجلة سيرتا، المقال السابق، ص 41.
(12) تاريخ الأمم والملوك، بيروت، جـ 4 ص 197.
(13) اليعقوبي، تاريخ بيروت 1960. جـ 1ز 172. ويرى اليعقوبي أن ارمينيا الرابعة هي عبارة عن كورة تتألف من الران وجزران والبسفرجان والسيسجان.
(14) المرجع السابق، ص 38.
(15) المرجع السابق، ص 38.
(16) علي الجندي وآخران، أطوار الثقافة والفكر. جـ 2. ص 13.
(17) نفسه، ص 13.
(18) ع خليل ابراهيم، دور الشعر في معركة الدعوة الاسلامية أيام الرسول ﷺ. ط. الجزائر 1971. ص 59.
(19) سورة البقرة ، آية 78.
(20) ديوان الهذليين، جـ 1، ص 64.
(21) علي الجندي، المرجع السابق، ص 13.
(22) المرجع السابق ص 13.
(23) مجبة سيرتا، العدد 8ـ9، ص 32.
(24) الأرمن شعب أسيوي انتشرت فيه المسيحية الارثوذكسية واليهودية والمجوسية، راجع د. عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، جـ 1، ص 247.

(25) Ghénand; Histoire des guerres et des conquëtes des arabes en Arménie, trad. G. V., Paris 1856, ch. II, p. 6.
(26) Histoire de Tarawn, Venise 1832, pp. 57-58.

(27) البلاذري، المرجع السابق. جـ 1، ص 237.
(28) نفسه، ص 238. وراجع الطبري، المرجع السابق. جـ 4، ص 260، 261. وابن الأثير، الكامل. جـ 31/3.
(29) الطبري، المرجع السابق. جـ 257/4. وابن الأثير، المرجع السابق، جـ 29/3.
(30) الطبري، نفسه. جـ 257/4.
(31) Histoire de Saint-Neusés et de 'Tarawn, Venise, pp. 57-58.
(32) مجلة سيرتا، المقال السابق، ص 39.
(33) نفسه، ص ص 39ـ40.
(34) الطبري، المرجع السابق. جـ 197/4. وابن الأثير، الكامل. جـ 533/2. وفايز اسكندر، المرجع السابق. ص 40.
(25) البلاذري، فتوح البلدان. جـ 208/1.
(36) فايز اسكندر، المرجع السابق. ص 40.
(37) نفسه، ص 40.
(38) نفسه، ص 40.